الشناقطة بين التقليد الأعمى واعتماد الدليل

أحمدُ بن الإمام التيشيتيُّ

الحمد لله ذي المنّ والإحسان، وأصلّي وأسلّم على صفوة بني عدنان، محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب الهاشمي القرشي، وعلى آله الأطهار الأبرار.

أمّا بعد:
فإنّ التقليد الأعمى قد بسط سيطرته، وأحكم نفوذه، وألقى بظلاله الكئيبة على ربوع عالمنا الإسلامي كلّه، تمّ ذلك في عصور الانحطاط والظلام البائسة، وكثيرة هي الأسباب التي أدّت إلى استحكامه في النفوس، واستيلائه على العقول، وقد استقصيناها في: "محصول القراءة والمطالعة" ونكتفي هنا بمثال واحد من عديد الأمثلة التي تمّ استيفاؤها هناك، وهو : التمصلح، فإنّ ممارسة التمذهب على الطريقة الخلفيّة قد جرّت على منتحليه مصلحةً ماليةً كبرى، لأنّ أمراء السوء حين رأوا تجذّر بدعة التقليد واستحكامها في نفوس العوامّ، أرادوا الاستفادة من ذلك، فأنشؤوا الأوقاف الضخمة، وبذلوا الأجور السنيّة لناشري تلك البدعة، وأغدقوا عليهم من جزيل الأموال، الأمر الذي أسال لعاب أولئك المتاجرين بدين الله، فحرصوا على استمرار ونشر تلك البدعة وإفشائها بين الأنام، حتّى عمّت الخافقين، فأصبحت مفاهيم التمذهب الخلفي الخاطئة هي المفاهيم الصحيحة، وهكذا -لقلّة الصادعين بالحق- أصبح الحقّ باطلًا، والباطل حقًّا، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

وأهل شنقيط بحكم العزلة الجغرافيّة المضروبة على بلادهم، فإنّهم مستوردون للأفكار والمذاهب لا منتجون لها، فقد استوردوا المذهب الأشعري يوم أن كان لأنصاره الغلبة والدولة في المغرب الأقصا،

واستقدموا التصوّف يوم أن كانت سوقه رائجة عند جيرانهم، ولم يكن التقليد الأعمى المذموم الذي فرض نفسه على المجتمعات المسلمة استثناءً في ذلك، فقد أخذوه هو الآخر وتمسّكوا به، وعبّروا عن تمسّكهم ذاك به في إنتاجهم المنظوم والمنثور، (١) فمن ذلك قول النابغة الغلّاوي مخبرًا عن انعدام المجتهدين في هذا القطر:

والاجتهاد في بلاد المغرب طارت به في الجوّ عنقا مغرب

وقال محمد مولود بن أحمد فال مبيّنًا حرمة الخروج على المذاهب الأربعة :

بل نهج غير مالك والشافعي والحنفي وأحمد اليوم امنع
أن يقتفيه مقتف وعمدتي في منعه الحطّاب وابن سودة
لذاك لم يُسمّ مذهب أبي بكر ولا عمر في المذاهب

وقال سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي في "مراقيه" في ذات المعنى :

والمجمع اليوم عليه أربعة وقفوُ غيرها الجميع منعه

---

(١) قال المختار بن حامدٌ في الجزء الجغرافي من تاريخ موريتانيا: (اشتدّت عناية الزوايا بالعلم، واستُجلبت المتون من بلاد الإسلام، وعني الطلّاب بدرسها، والعلماء بالتعليق عليها واختصارها، ومحاذاتها، بمصنّفات منظومة أو منثورة، ولم تخل قبيلة من الزوايا في هذا العصر من علماء مشاركين في جميع العلوم، أو متخصّصين في بعضها، يستظهرون المتون العلميّة المختصرة المقرّرة للتدريس ويُطالعون المطوّلات، فمن ذلك في الفقه وفي المرحلة الابتدائية.." فذكر بعض مؤلّفات عصور الانحطاط عديمة المحصول، كمختصر خليل ومختصر الأخضري ومنظومة ابن

ويقول محمد بن محمذ فال بن أحمد فال حاكيًا عن علماء بلده حرمة الخروج على مذهب مالك:

وأهل مغربٍ عليهم يُمنع غير الإمام مالك أن يتبعوا
لفقد غيره وكل خارج عن نهجه فهو من الخوارج

غيرَ أنّ هذا الاتّجاه الذي ظلّ سائدًا في البلاد فترةً طويلةً، (هي فترة الركود الحضاري الذي عانت منه الأمة في قرون انحطاطها وتخلّفها.) لم يلبث أن بان للعيون الصحيحة ما ينطوي عليه من غبش وانحراف، ويعود الفضل -بعد الله تعالى- في التنبّه لتلك الحقيقة إلى الصحوة المباركة، التي ارتفعت رايتها ودوّى صداها، بزوغَ فجر القرن الثاني عشر الهجري، على يد مجدّد التوحيد في الجزيرة العربية، الإمام محمد بن عبد الوهّاب النجدي رحمة الله عليه، وقد تأثّرت أقطار إسلامية عديدة بهذه الدعوة المباركة، وقد افترض بعض الباحثين أن يكون المجيدري بن حبّللّ اليعقوبي [ت: ١٢٠٤ هـ] قد تأثّر في رحلته للمشرق بهذه الدعوة (١) ومعلومٌ أن المدرسة السلفيّة عمومًا تُنابذ التقليد الأعمى والتعصّب المقيت.

=ابن عاشر وسواهم، ونقل -غفر الله له- بعض حوالي ومختصرات أهل ذي البلاد نموذجًا للإبداع باب التصنيف، فأيّ إبداع في اختصار المختصر وتحشية المحشّى؟ (انظر : حياة موريتانيا «الجغرافيا» المختار بن حامد، منشورات: معهد الدراسات الإفريقيّة بالرباط، ١٤١٤ هجريّة، ١٩٩٤م ص ٦ وما بعدها.

(١) انظر : بلاد شنقيط المنارة والرباط عرضٌ للحياة العلميّة والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدويّة المتنقّلة (المحاضر) ، الخليل النحوي، المنظّمة العربيّة للتربيّة والثقافة والعلوم-تونس، ١٩٨٧م ص١٩٧.

أمّا ما لاخلاف عليه، فهو أنّ العلّامة المحقّق الأصولي باب بن الشيخ سيديّا الإيبيري [ت: ١٣٤٢ هـ] كان له فضل السبق في الدعوة إلى التمسّك بما قام على صحّته الدليل، ونبذ التقليد الأعمى، و له في ذلك: "إرشاد المقلّدين عند اختلاف المجتهدين" يقول في أوّله :

.

(أما بعد: فهذه نقولٌ قُصد بها بيان أنّ الأولى للمقلّد لأحد الأئمّة الأربعة إذا وجد خلاف إمامه عن أحد الأئمّة الثلاثة في مسألة، وتبيّن له رجحانه على مذهب إمامه في تلك المسألة بموافقة القرآن أو السنّة الصحيحة، المخرّجة في الصحيحين أو أحدهما، أو نصّ الترمذي مثلًا على صحّته، ولم يجد مثل ذلك لإمامه، أو وجد ثلاثة من الأئمّة الأربعة متوافقين على خلاف إمامه في مسألة، ولم يجد فيها دليلًا من القرآن أو السنّة الصحيحة موافقًا لإمامه، لا سيّما إن اجتمعت هذه المرجّحات كلها، ومعها رواية عن إمامه، **أن يعمل بما تبيّن له رجحانه، إن كان متحرّيًا للحق،** ولا حول ولا قوّة إلا بالله) (١)

وقد كان لباب بن الشيخ سيديّا تأثير كبير على أبناء جيله، فتأثّر بدعوته السلفية وحمَلها عنه طوائف ممّن عاصره أو قرأ عليه(٢)،

---

(١) إرشاد المقلّدين عند اختلاف المجتهدين، باب بن الشيخ سيديّا الشنقيطي، دراسة وتحقيق: الطيب بن عمر بن حسين الجكني، الناشر: دار ابن حزم الطبعة الأولى ١٤١٨ هجريّة، ١٩٩٧م ص٩٣- ٩٥

(٢) تأثّر بدعوة باب بن الشيخ سيديّا ودعا إليها جمعٌ من أعلام هذه البلاد، انظر تراجمهم وبعض مساهماتهم العلميّة في نصرة الدعوة السلفيّة في هذه البلاد في : "الدعوة السلفيّة وأعلامها فى موريتانيا (شنقيط)، تأليف: الشيخ الطيبّ بن عمر بن الحسين، دار ابن حزم للطباعة بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هجريّة ١٩٩٥م، ص ٢٩٩ - ٣٤٢.

منهم -على سبيل المثال- العلّامة المحدّث الفهامة محمد ابن أبي مدين الشنقيطي الديماني [ت: ١٣٩٦ هـ]
له: "الصوارم والأسنّة في الذبّ عن السنّة" يقول في مقدّمته:
(الحمد لله الذي منّ علينا بدين الإسلام، وجعله باقيًا آخر الليالي والأيّام، ووعد بالثواب الجزيل من ذبّ عنه بالسهام أو القلام، نستغفره جلّ عن جملة الآثام، ونستعينه على أداء ما يُرضيه على الدوام، ونصلّي ونُسلّم أفضل الصلاة وأتمّ السلام، على سيّدنا محمد خيرته من الأنام، وعلى آله وأصحابه الأعلام، بدور الدجى ومصابيح الظلام، الحاوين بالقبض على سنّته أرفع مقام.
أما بعد: فيقول العبد الفقير إلى رحمة الرحمن، محمد ابن أبي مدين ابن الشيخ أحمد بن سليمان، جادت عليهم سحائب اللطف والامتنان، هذه نقولٌ بيّنتُ فيها للمنصفين أنّ القبض والرفع حقٌّ على المسلمين لتواترهما عن الرسول المصطفى وكفى، ولأنّ عليهما عمل الخلفاء وباقي الصحابة ذوى الصفاء، والتابعين لهم بإحسان ومن لمنهاج الجميع اقتفى، كمالك وسائر الأئمّة الأجلاء، سوى رواية ابن القاسم عنه كراهية القبض ليس إلّا، مع عدم صراحتها وتأويل نقّاد المذهب، بمن فعله للاعتماد أو الاستناد، خوفًا على ابن القاسم من الشذوذ والانفراد، ورتّبتها على مقدّمة وأربعة أبواب وخاتمة، المقدّمة في ردّ من طعن في صحّة أحاديث القبض وادّعى انقطاعها واضطرابها، مبينًا بطلان ما ادّعى من ذلك وصوابها.
والباب الأوّل في أدلّة القبض، وفيه ستّة فصول .. وذكرها، ثم ذكر كل باب مع فصوله، ثم قال: **والباب الرابع**: وفيه ثلاثة فصول، **الأول: في وجوب اتّباع السنّة دون ما عداها، والثاني:** في خفاء بعض السنن على الأصاغر ومعرفة الأكابر لها، **الثالث:**تبرّئي الأئمّة ممّا خالف السنة

وبيان غلط من نسب تلك الأقوال لمذاهبهم.

والخاتمة: في الكلام على التقليد والاجتهاد وفيه سبعة فصول، **الأول:** في تعريف التقليد، **وذمّ العلماء له، الثاني: في احتجاجات أهله وردّها، الثالث:** في التحذير من زلّة العالم، **والرابع:** في الاجتهاد **ويُسره، الخامس: في تجزّئه، السادس:** في اجتهاد العامي، **السابع: في ردّ دعوى انقطاعه،** طالبًا ممّن وقف عليه أن ينظر إليه بعين الإنصاف والاسترشاد، خاليًا من التعنّت والعناد، متيقّنًا من عدم السلامة من الناقدين بالدال وبالضاد، معتقدًا ظهور الحقّ ولو بعد حين، متمثّلًا بقول أحد أئمّة الدين :

يحقّ الحق حتمًا دون شكٍّ وإن كره المشكّك والملدّ

صريح الحقّ قد يخفى ولكن بُعيد خفائه لا بدّ يبدو (١)

وقال أيضًا: (**ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمّة فيُقلّده في دينه دون غيره، وقد انطوت القرون الفاضلة ببراءة أهلها من هذه النسبة،**

بل لا يصحّ للعامي مذهب ولو تمذهب به، لأنّ المذهب إنّما يكون لمن له نوع نظر واستدلال، فمن ليس كذلك لا يكون بقوله أنا مالكيٌّ -مثلاً- مالكيًا، بل هي مجرّد دعوى كاذبة، **وهذه بدعة قبيحة حدثت في الأمة لم يقل بها أحد من أئمّة الإسلام، وأبعد منه القول بلزوم واحد من الأئمّة الأربعة،** فيا لله ماتت مذاهب الصحابة والتابعين وتابعيهم وسائر أئمّة الإسلام، وبطلت جملة إلا مذاهب أربع أنفس فقط من بين الأئمّة والفقهاء، وهل قال بذلك أحد من الأئمّة أو دعا إليه أو دلّت لفظة واحدة من كلامه عليه؟ والذي أوجبه الله على

---

(١) الصوارم والأسنّة في الذّبّ عن السنّة، محمد ابن أبي مدين ابن الشيخ أحمد بن سليمان الشنجيطي، الناشر: دار الكتب العلميّة بيروت-لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هجريّة ١٩٨٧م ص ٣-٤

الصحابة والتابعين هو الذي أوجبه على من بعدهم إلى يوم القيامة، **وإذا تأملت هذا يظهر لك أنّ التقليد لإمام معيّن من غير نظر إلى دليل من الكتاب والسنّة جهل عظيم، لأنّه مجرّد هوى وعصبيّة، والأئمّة المجتهدون قاطبةً على خلافة، لأنّه صحّ عن كلّ واحد منهم ذمّ التقليد بغير دليل وإبطاله) (١)**

أمّا من أقام البراهين الواضحة، ونصب الأدلّة الساطعة، على فساد التقليد، وإبطال ما يلهج به دعاته من الافتراءات والأكاذيب، بما لم يسبقه إلى مثله سابق، فهو علّامة شنقيط بلا منازع، وإمامها بلا مدافع، العلّامة الجهبذ المفسّر الأصولي اللغوي المتفنّن : محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي الجكني(آبّة ابن اخطور) [ت: ١٣٩٣ هـ] رحمه الله تعالى رحمةً واسعة، فقد تعرّض عند تفسير قول الله جلّ ذكره : {أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها} من كتابه الفذّ : "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" إلى آراء المقلّدة وأدلّتهم المزعومة وفنّدها كلّها، واحدة بعد أخرى، حتّى جاء عليها من جذورها، فلله درّه وعلى الله أجره.

وقد قام بعض الناشرين(٢) بإفراد ذلك البحث المميّز في كتاب خاص أصدره، وعنونه بعنوان اختاره، صدرت الطبعة الأولى منه عن دار الصحوة عام ١٤٠٥ هجريّة، في ١١١ ورقة.
ابتدأ الشيخ رحمة الله عليه بحثه المذكور بذكر معنى التقليد مبيّنًا أحكامه وأنواعه، ثم قال عن تقليد المتأخّرين المبتدع المحرّم:

---

(١) الصوارم والأسنّة ص٢٧٤

(٢) هو: الدكتور مقتدى حسن الأزهري رحمه الله تعالى.

(وأمّا نوع التقليد الذي خالف فيه المتأخّرون الصحابة وغيرهم من القرون المشهود لهم بالخيرية، **فهو تقليد رجل واحد معيّن دون غيره من العلماء، فإن هذا النوع من التقليد لم يرد به نصٌّ من كتاب ولا سنّة، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أحدٌ من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير، وهو مخالف للأئمة الأربعة رحمهم الله،** فلم يقل أحدٌ منهم بالجمود على قول رجل واحد معيّن دون غيره، من جميع علماء المسلمين.

فتقليد العالم المعيّن من بدع القرن الرابع، ومن يدّعي خلاف ذلك فليعيّن لنا رجلًا واحدًا من القرون الثلاثة الأول، التزم مذهب رجل واحد معيّن ولن يستطيع ذلك أبدًا، لأنّه لم يقع البتّة) (١)

ثم عقد بابًا عنوانه : أقوال العلماء في فساد التقليد، من الصفحة ٩ إلى الصفحة ١٨، ثم بابًا آخر عنونه ب : حوار حول التقليد، وبابًا ثالثًا عنوانه: حاصل حجج المقلدين، ورابعًا : الردّ على حجج المقلّدين، وممّا جاء في هذا الباب المهمّ قول الشيخ رحمة الله عليه:

(والمقلّدون مُقرّون على أنفسهم بأنّهم لا يعلمون أمر الله ولا نهيه، ولا أمر رسوله ولا نهيه، وغاية ما يدّعون علمه هو : أن الإمام الذي قلّدوه قال كذا، مع عجزهم عن التمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب، بل أكثرهم لا يُميّزون بين قول الإمام وبين ما ألحقه أتباعه بعده ممّا قاسوه على أصول مذهبه .. فمن قلّد العلماء التقليد الأعمى وترك الكتاب والسنّة لأقوالهم فهو المخالف لهم المتباعد عن طاعتهم كما تقدّم، وكما سيأتي إن شاء الله) (٢)

---

(١) القول السديد في كشف حقيقة التقليد، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي الجكني، نشر: دار الصحوة، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هجريّة، ص٩

(٢) القول السديد ص٤١

ثم ختم بحثه ب : تنبيهات مهمّة تتعلّق بمسألة التقليد، وهي إحدى عشر تنبيه، من الصفحة ٥٧ إلى نهاية الرسالة، وهذه التنبيهات تفوق في الأهميّة -في نظري- سائر فصول الرسالة الأخرى، فالله يجزيه بما هو أهله، بما ذبّ عن دين الله تبارك وتعالى.

وممّن عاب التقليد الأعمى، وانتصر لاعتماد الدّليل: إمام القطر، ومفتي الديّار، العلّامة محمد (بدّاه) بن البوصيري التندغي [ت: ١٤٣٠ هـ] رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً، وله في ذلك المؤلفات العديدة، منها :

١_ الحجر الأساس لمن أراد شرعة خير الناس (نظم)

٢_ القول المبين في الردّ على من قال بالتزام مذهب معيّن.

٣_ القول المفيد في ذم فادح الاجتهاد وفادح التقليد.

٤_ أسنى المسالك في أنّ من عمل بالراجح ما خرج عن مذهب الإمام مالك.

وقد اطّلعتُ على نظمه (الحجر الأساس)، واطّلعت كذلك على كتابه أسنى المسالك، يقول الإمام في مقدّمة نظمه المذكور :

حمدا لمن أمرنا بالاقتدا ... بسنة الرسول طاب محتدا
ثم الصلاة مع سلام تال ... على النبي وصحبه والآل
هذا وإن مالكًا بذا أمر ... كغيره من علماء ذي الزمر

وقرر الرسول في حياته ... أجر الخطا لعالم آياته
ومدَح القرنين بعد الأول ... مع ذم تالي ذي القرون الأول
فالسلف الصالح تيلك القرون ... والخلف المذموم بعده يكون
وقال لا تزال بعدُ طائفه ... يحمل هذا العلم منها طائفه
وجوَّز العمل بالرأي لدى ... فقد الكتاب ثم سنة الهدى
على خلاف قد أتى في المسأله ... علمه بعضٌ وبعضٌ جَهِلَه
وذاك لا ينكره إلا غبي ... أو جاهل بسنة الهادي النبي
وإنني أدعو إلى الذي دعا ... له الأمين وبه قد صدعا (١)
وقال أيضًا:
و "اليوم أكلمت" به قد أنزلت ... "تركت فيكم" أثبتت فيما ثبت
عن عدِّ ما ورد في الحث على ... سنته تكلُّ ألسنُ الملا
ومثلُ ذا تحذيره من بدعةٍ ... تحدث في آخر هذي الملة
والسلف الصالح كالأصحاب ... والتابعين تابعي الأنجاب
مضوا ولا مذهب مستمر ... وكلهم لسنة يَفِرُّ
وإن أتت حادثة إجتهدوا ... مجتمعين ربما تفرَّدوا
وكلهم يخطئ ثم يرجع ... لما إليه الملتجى والمرجع
ومالك والشافعي وأحمد ... كذا أبو حنيفة المحمد

---

(١) الحجر الأساس لمن أراد شرعة خير الناس، الإمام بدّاه بن البوصيري، مطبوع على الآلة الكاتبة، ص١

ماتوا على ذا النهج كلهم يقول.. الرأي يخطي، لا يعارض الرسول
وذا عليه وقع اتفاق ... مقلدي الجميع والوفاق
وبعدهم حدث ذا التعصب ....
إلى أن يقول :
فدعوة لسنة والكتابْ ... ولقرون زكيت عينُ الصوابْ
عكس التي تدعو إلى آراء ... محدثة قطعًا بلا امتراء (١)

أما كتابه : أسنى المسالك، فهو ردٌّ على الجامدين الذين يرون في الأخذ بالراجح شذوذٌ ومخالفة لما يعتقدون أنه المذهب، وهو كتاب مليء بالبحوث المحكمة، والردود القوية، يقول في مقدّمته :
(أمّا بعد: فهذه عجالة أردنا بها كشف القناع عن وجه صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، التي شاهدتم منذ خمسة أسابيع تنادي، وبصراحة أن لا منافاة بين هذه الصلاة وبين مذهب إمام الأئمّة مالك بن أنس رحمه الله تعالى) (٢)
وقال أيضًا: (عليكم بسنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، وإيّاكم والنظر بعين الازدراء إلى من تعاطى السنن وعمل بها، ولو كان عامّيًا أخذها عن عالم، كما أخذتم أنتم الآراء عمّن تعتقدون فيه العلم، فمن نظر إلى السنّة والعامل بها بعين الازدراء بحيث يقول باللغة الجاريّة : هذا الدين الطارئ، الشيوخ هم الذين يتبعون بهذه الرقصة هذا الالتواء، يعني: القبض والرفع الثابتين تواترًا عن رسول الله صلّى الله عليه

---

(١) المصدر السابق ص٢-٣
(١) أسنى المسالك في أنّ من عمل بالراجح ما خرج عن مذهب الإمام مالك، تأليف: بدّاه بن البوصيري، تحقيق وتعليق: فخر الدين بن الزبير بن علي المحسّى، الطبعة الثانية ١٤٢٦ هجريّة، ٢٠٠٥م، ص ٣٩

وآله وسلم وما ذُكر معهما في هذه العجالة، وفي غيرها من السنن الصحيحة الصريحة: لا شكّ أنه تنقّص المعصوم، لنسبته إلى سنّته أخسّ وصف وأرذله، حتّى أنه لا يتعاطاه إلا أراذل الناس وضلّالهم، **فارتدّ بذلك عن دين الإسلام حسبما نصّ عليه الشيخ خليل في باب الردّة ممزوجًا ببعض شرح الدرديري،** ص٣٠٩ ج٤) (١)

ومَن له اطّلاع على الصحوة الإسلاميّة الحديثة التي شهدتها هذه البلاد، يعلم -يقينًا- أنّ الإمام بدّاه كان رائد تلك الصحوة وحامل لواءها بلا منازع، فقد وقف أمام جموع الجامدين الذين رأوا في دعوته خطرًا يتهدّدهم، فلجّوا في خصومته ووقوفوا له بكلّ مرصد، إلّا أنّ جولة الباطل كانت في نهاية شوطها، وقد قيل: "للباطل جولة، وللحقّ الغلبة والدولة" فالدعوة التي ابتدأ ظهورها مع باب بن الشيخ سيديّا، كان لها أنصار ودعاة عديدون، ولكنّهم كانوا من النخب، فلم يكن صدى صوتهم يصل آذان العوامّ العاديّين، والشيخ بدّاه رغم أنّه كان من نخبة النخبة، إلّا أنّ تأثيره على الناس كان عجيبًا، فكانت له القدرة على التأثير على كلّ من يسمعه ويُصغي إليه، وقد هيّأ له منصبه -وقد كان مفتي البلاد- أنّ الجميع استمع له وأنصت إليه، فأثّر في المجتمع الشنقيطي تأثيرًا عميقًا، فلقيت دعوته من القبول والانتشار ما جعلها تتغلّب على كل دعوة سبقتها، ولا أدلّ على ذلك من القبول والاستحسان الذي حُظي به كتابه هذا، فقد قرّظه ما يزيد على أربعين نفسًا من أعلام هذه البلاد (٢) منهم على سبيل المثال محمد عالي بن عبد الودود وابنه العلّامة البحر محمد سالم

---

(١) أسنى المسالك ص ٩٨

(٢) انظر قائمة أسمائهم في مقدمة الكتاب

بن محمد عالي بن عبد الودود، والعلّامة المحدّث محمّد ابن أبي مدين، والعلّامة المؤرّخ المختار بن حامد، والعلّامة المختار بن ابلول، وسواهم كثير.

ونظرة سريعة إلى واقع المتذهبين اليوم في ذي البلاد، تكشف للناظر -على ضوء اكتساح مدرسة بدّاه للساحة وانفرادها بالجمهور- أنّ الأغلبيّة هي لدعاة الأخذ بالدليل، لا سيما في المدن الكبرى كنواكشوط والعيون وسواهما، وأمّا أهل التقليد والجمود فأمرهم في تراجع وإلى انحسار، فلم يعد لهم تأثير سوى في بعض الأماكن النائيّة البعيدة، التي تنعدم فيها كلّ أسباب المدنيّة الحديثة من اتّصالات وإنترنت وسواها، فيخلو الجوّ لفكر قرون الانحطاط الخرافي في مثلها.

وأكاد أجزم أنّه لولا دعم الدولة الوطنيّة الحديثة لخرافات الممتمذهبين وشطحات المتصوفة، لما كان للفكرتين قدرة على البقاء والصمود في عالم يُعلي من شأن العقل ويأنف عن خرافاتٍ أكل عليها الدهر وشرب (١)، ولكنّ وكلاء المحتلّ ورعاة مصالحه من بني جلدتنا الذين فرضهم على الشعوب المسلمة فرضًا، وهم يبحثون عن الشرعيّة يُولون وجوههم شطر سدنة الخرافة وحرّاسها، (أيًّا كانوا) لعلمهم أنّ أولئك أصحاب مصالح دنيويّة، فيعملون على التقاء المصلحتين حتّى يكونوا لهم عند الضرورة داعمين، لهذا دائمًا ما

---

(١) إذا كان التيّار السلفي الذي يدعو إلى التقيّد بالكتاب والسنّة في وجه العاصفة، إذ تتمخّض المكتبات في العالم الإسلامي عن عشرات الكتب ومئات المقالات تتضمّن كمًّا هائلًا من الشبه والأراجيف، من الملاحدة والعالمانيين وسواهم، فكيف يكون لأفكار قرون الانحطاط التي لا خُطام لها ولا زمام قدرة على الصمود في جوٍّ مليء بالأسئلة المحرجة والأطروحات المتحدّيّة ؟

نسمع أولئك الحكّام يرفعون شعارات من قبيل : الدولة تُحافظ على تراث الآباء والأجداد، فيعزفون على وتر يُلامس القلوب، ومن لا يُحبّ أباه وأجداده الأقدمون ؟!